الشريف الرضي

٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ

القرن الرابع للهجرة ـ على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية فيه بعد دخول البويهيين العراق ـ حافل بالحركات العلمية في شتى نواحي المعرفة . زاخر بعدد كبير من العلماء والادباء والفقهاء . زاهر بالمكتبات التي تعج بالكتب في مختلف فنون العلم والأدب والتاريخ والطب والفاسفة .. حتى إن الشريف الرضي الذي سنترجم له في الصفحات الآتية كانت له دار سماها دار العلم . هيأ لها كل مستلزمات الدراسة وأسباب الراحة .

سيرته :

هو أبو الحسن . الشريف الأجل . الملقب بالرضي . محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنه . وأمه السيدة فاطمة بنت الحسين بن أحمد بن الحسن الناصر الذي يرجع نسبه الى الامام علي رض الله عنه .

ولد في بغداد بجانب الكرخ سنة ٣٥٩ للهجرة(١٠٥٥) . ونشأ في بيت عزّ وشرف . وفي بيئة علمية وأدبية . وقد توجّه منذ الصغر مع أخيه الشريف المرتضى نحو التعلّم والتثقّف . وتتلمذ على أساتذة أجلاء كثيرين في مختلف العلوم(١٠٥٦) . من ابرزهم ابو سعيد السيرافي النحوي المشهور . وأبو الفتح عثمان بن جني اللغوي النحوي . وأبو علي الحسن بن أحمد النحوي . وأبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الطبري الفقيه المالكي . ومحمد بن عمران المرزباني . والشيخ المفيد ابو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن المعلم . وابن نُباتة الفارقي ...

شبَّ الشريف الرضي عالماً شاعراً . طموحاً الى المجد . نزّاعاً الى العُلى . والقارىء في شعره يلمس ذلك بوضوح . مثل قوله(١٠٥٧) :

(١٠٥٥) المحمدون من الشعراء ص ٢٤٤ .

(١٠٥٦) الغدير ٤ : ١٨٣ ـ ١٨٥ . الحماسة في شعر الشريف الرضي ٨٣ ـ ٨٦ .

(١٠٥٧) ديوانه ١ : ٢٥٤ .

لا هَـمَّ قـلـبـي بركوبِ الـعَلى يوماً ولا بـلَّ يدَيَّ الـسِّـمـاخ
إنْ لـم أنـلْـهـا باشـتـراطٍ كـمـا شئتُ على بيضِ الظُبا واقتراخ
أفوزُ مـنـهـا بالـلُـبـابِ الذي يُـغـنـي الأمانـي نـيـلُـهُ والـصُراخ
لا بدَّ أن أركـبـهـا صـعـبـةً وقَاحةً تـحـتَ غُلامٍ وقَاخ

ولعله كان يبغي الرئاسة لينقذ أمّته من السقوط في الهاوية ولا سيما بعد أن هان أمر الخلفاء العباسيين وأصبحوا لعبةً بيد الأعاجم. ها هو ذا يصرح بملء فمه عن نيته فيقول(١٠٥٨):

سأخـطُـبـهـا بـحدّ الـسَّـيـفِ فـعلاً إذا لم يُغْنِ قولٌ أو خِطابُ
وآخُذُها وإنْ رَغِـمَـتْ أنوفٌ مُـغـالـبـةً وإنْ ذَلـلـتْ رقابُ
وإنَّ مُقامَ مِثلي في الأعادي مُـقامُ الـبدرِ تـنـبـحُـهُ الـكِلابُ
رمونـي بالـعـيوبِ مُـلـفَّـقاتٍ وقد عـلـمـوا بأنّـي لا أُعابُ

كان الشريف الرضي الى جانب ما يحمله من اباء وعزّة وشمم. موصوفاً بالعفّة والورع والتدين. ووصف أيضاً بالجود والحذب على قومه ومن اتصل به من الناس(١٠٥٩). وسمت مكانته. وعلت منزلته عند الخاصة والعامة. وقد أمر بهاء الدولة البويهي أن تكون مخاطباته بعنوان: الشريف الأجل. ثم خلع عليه لقب الرضي. وشغل منصب نقابة الطالبيين. والنظر في المظالم. وامارة الحج. والنظر في أمور المساجد بمدينة السلام.

عاصر الشريفُ الرضي ثلاثة خلفاء: المطيع لله. والطائع لله. والقادر بالله. قضى من عمره أربع سنوات في عهد المطيع. وثمانية عشر عاماً في ظل الطائع. وخمسة وعشرين عاماً من مدة حكم القادر وكان في عهد المطيع طفلاً. أما في عهد الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) فكان شاباً يافعاً. وكانت علاقته به طيبة ولا سيما بعد أن أطلق سراح والده من السجن الذي وضعه فيه عضد الدولة تنفيذاً لخطته في القضاء على مَنْ يخشى بأسهم على ملكه. وحينما جاء القادر الى الخلافة لم تنقطع صلته بدار الخلافة. بل قَدُمَ مديحه لهذا الخليفة وكسب رضاه. وكانت له صلات ببعض الأمراء والوزراء بحكم مكانته في أسرته. فمن الأمراء شرف الدولة وبهاء الدولة البويهيين. ومن الوزراء الصاحب بن عبّاد. وعبد العزيز بن يوسف.

(١٠٥٨) ديوانه ١: ١٢٧.

(١٠٥٩) ينظر المنتظم ٧: ٢٧٩. شرح نهج البلاغة ١: ٣٣

وكان الشريف الرضي ـ على كثرة مشاغله ـ دؤوباً في التأليف والتصنيف . وقد ترك آثاراً جليلة وقيمة(١٠٦٠) . من أهمها : حقائق التأويل في متشابه التنزيل . وتلخيص البيان عن مجازات القرآن . ومجازات الآثار النبوية . وخصائص الأئمة . ونهج البلاغة . وديوان شعره .

توفي الشريف الرضي يوم الأحد السادس من شهر المحرم سنة ٤٠٦ للهجرة . ورثاه ثلاثة شعراء كبار : الشريف المرتضى . والوزير أبو القاسم الحسين بن علي . ومهيار الديلمي .

شعره :

كان الشريف الرضي شاعراً فصيحاً . كما كان كاتباً مترسلا . وإماماً في النحو واللغة والتفسير . قال الشعر بعد أن جاوز العشرين من سني عمره بقليل كما ذكر الثعالبي(١٠٦١) . واستمر في نظمه طيلة حياته . وكانت آخر قصيدة له في رثاء صديقه أحمد بن علي البتّي في شعبان سنة ٤٠٥ للهجرة . أي قبل وفاته بعدة أشهر . وقد صنع ديوانه أبو حكيم عبد الله بن ابراهيم الخيري (ت ٤٧٦ هـ) مرتباً على الأغراض . فجعل باباً للمدح . وباباً للافتخار وشكوى الزمان . وباباً للمراثي . وباباً للنسيب . وباباً للفنون المتنوعة . ورتب القصائد في داخل كل باب على القوافي حسب حروف الهجاء . وقد عدل مَنْ جاء بعد أبي حكيم الى ترتيب الديوان كله حسب حروف الهجاء .

أخذ المديح قسطاً وافراً من شعره . خصّصه للكثرين من أفراد أسرته . وأصدقائه . وأرباب السلطة وأصحاب السلطان . وقد جاء بعضُه خالياً من الصدق . وإن ظهر في اطار فخم مجمّل بحلْية الألفاظ . وقد اعترف الرضيُّ نفسه بأنه كان يُهذّبُ خواطره في مدح اللئام . فتأتي المعاني مُغلّفةً بثوب الصدق . ولعله فعل ذلكَ دريئةً من أذى المتسلطين على الحكم آنذاك :(١٠٦٢) :

أُهذّبُ في مدح اللئام خواطري ... فأَصْدُقُ في حُسنِ المعاني . وأكذِبُ

(١٠٦٠) ينظر الغدير ٤ : ١٨٦ ـ ٢٠٠ . الشريف الرضي وجهوده النحوية ٢٢ ـ ٢٨ .

(١٠٦١) يتيمة الدهر ٣ : ١٣٦ .

(١٠٦٢) ديوانه ١ : ١١٢ .

مدح الشريف الرضي من الخلفاء الطائع لله والقادر بالله . ومن بني بويه شرف الدولة وبهاء الدولة . ومن الوزراء أبا منصور محمد بن الحسن بن صالح . وأبا علي الحسن بن حمد بن أبي الزمان . وأبا سعيد بن خلف . والصاحب بن عباد وسواهم . ومن أصدق مدائحه وأخلصها ما قاله في أبيه الحسين . وخاله أحمد بن الحسين وفي صديقيه الحميمين أبي اسحاق الصابي . وأبي الحسن أحمد بن علي البتّي الكاتب.

إن أكبر حادثة أثرت في نفسه أبلغ الأثر سجن ابيه في بلاد فارس(٣٦٩ـ٣٧٥هـ) ومصادرة أملاكه . فراح يمدحَ هذا الأب بقصائد كثيرة . وهي تنقسم الى ثلاث طوائف : الطائفة الاولى في التوجُّع لأبيه وهو سجين . والطائفة الثانية في تهنئة أبيه بالخلاص ورد أملاكه اليه . وطائفة الثالثة في تهنئته بالأعياد بعد أنْ لانَ الزمانُ . ولكل طائفة من هذه الاشعار خصائص : فالطائفة الاولى تُصور الحزن والجزع والتفجع . والثانية يغلب عليها الإنفتاح والإنشراح . والثالثة تخلع على أبيه رداء الملوك : فهو يدخل عليه في كلِ عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحيَّةِ الخلفاء والملوك(١٠٦٣) . وكانت أول قصيدة قالها في مدح أبيه مطلعها :(١٠٦٤)

نُصافي المعالي . والزَّمانُ معاندُ ونَنهضُ بالآمال . والجَدُّ قاعِدُ

تقع القصيدة في ثمانية وسبعين بيتاً . وهي ـ وإن كان الرضي في أول نظمه للشعر ـ جيدة في عرض معاناة الألم والغربة بعد غياب والده . وقد تحدَّث في بعض أبياتها حديث الحكماء :

ينالُ الفتى مِن دهرِه قَدْرَ نفسِه وتأتي على قدرِ الرجالِ المكابدُ
فدىً لكَ يامجدَ المعالي وبأسها فِعالُ جبانٍ شجعتهُ الحقائدُ
فما تركت منك الصوارمُ والقنا ولا أخذتْ منكَ الحسانُ الخرائدُ
عُزِلتَ ولكن ماعزلتَ عن الندى وجودك في جيد العُلى لكَ شاهدُ

وحينما أطلق سراحهُ . وبارخ السجن . ووصل الى بغداد . رآه وخفق قلبهُ . وانهلت مدامعه فرحاً . وقابله بقصيدة تتشح بالسرور . منها قوله :(١٠٦٥)

(١٠٦٣) ينظر عبقرية الشريف الرضي ١ : ١٠٦
(١٠٦٤) ديوانه ١ : ٣٠٥ .
(١٠٦٥) ديوانه ١ : ٧٧

يازالَ مـنـكَ عـلـى الـنـائـبات ... مـقـامٌ عـظـيـمٌ ويومٌ عـصـيـبُ
فـيومٌ حـسامـكَ فـيـه الـخـطـيـبُ ... ويومٌ لـسانـكَ فـيـه الـخـطـيـبُ
طـلـبـت لـنـفـسـكَ . فاطـلـبْ لـنا ... من العزّ . انَّ المحامي طلوبُ
وان كـنـتَ تـأنـفُ عـن حُـبـه ... فانَّ العلاءَ الـيـنـا حـبـيـبُ
وما نـحـن أنـت . وكـلٌ الى ... دعاء الـعُـلى طربٌ مـسـتـجـيـبُ

انه يريد جاه أبيه طريقاً الى « العز » . يريد نصيبه الخاص منه . لانَّ عز الأب ليس ملكاً للابن . وقوله « وما نحن أنت » وهو في السابعة عشرة من عمره يدلُّ على نحو من الشعور بالاستقلال الذاتي يحسن بنا أن لا نغفله(١٠٦٦) .

انَ شخصية الرضي بارزة في مدائحه . تظهر شامخة أبية . تطلب العزَّ والرفعة . مثل قوله من قصيدة في مدح الصاحب بن عباد :(١٠٦٧)

فاني رايتُ السيفَ أنصرَ للفتى ... اذا قال قولاً ماضياً أو توعَّدا
أرى بين نيل العزّ والذلّ ساعةً ... من الطعنِ تقتادُ الوشيجَ المقصَّدا
فمن أخرتهُ نفسُهُ مات عاجزاً ... ومن قدَّمتهُ نفسُهُ مات سيّدا
اذا كان إقدامُ الفتى ضائراً له ... فما المجدُ مطلوباً ولا العز مفتدى

ان فخره بنفسه . وزهوه بمقامه وشعره وشجاعته وفروسيته ومضاء عزمه وقوة ارادته . كثير في شعره . ولعل قصيدته الحماسية الآتية خير دليل على ذلك . ومطلعها :(١٠٦٨)

نـبـهـتـمْ مـثـلَ عوالـي الرماحْ ... الى الوغى قبل نموم الصَّباحْ
فوارسٌ نالوا المـنـى بالـقـنـا ... وصافحوا اعراضهم بالصَّفاحْ

ومنها :

وخطبةٍ يـضـحـكُ مـنـهـا الرُدى ... عسراءَ تبري القومَ بريَ القِداحْ
صـبـرتُ نـفـسـي عـنـد أهوالـهـا ... وقلتُ : من هبوتها لا بُراحْ
إما فـتـىً نالَ الـعُـلـى فاشـتـفى ... أو بطل ذاقَ الردى فاستراحْ

(١٠٦٦) ينظر الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ٧٧
(١٠٦٧) ديوانه ١ : ٢٨١
(١٠٦٨) ديوانه ١ : ٢٥٩

وقد أحسن الدكتور زكي مبارك في قوله : « ان هذا القصيد خليق بأن يكون نشيد الفتوة العربية ، وأهلٌ لأن يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية . فهو جذوةٌ من الفتوة . وقَبَسٌ من الرجولة . وشهابٌ من العزم المصمم الذي يطيح المصاعب والأهوال »(١٠٦٩)

كان الشريف الرضي يعتزُّ بقومه ويفخر بأُرومتهم .(١٠٧٠) ويريد لهم السمو والمقام الرفيع . ويُسمّي نفسه « الفتى العربي » . كما ورد في المقطوعة الآتية :(١٠٧١)

انيَ لأكرمُ نفسي أنْ يقالَ جنى على الفتى العربيّ الخردُ العُرُبُ
انيَ على شغفي بالحبِّ معتذر من أن يقال شجاعٌ فلّهُ الوصبُ
إنا معاشرٌ لاتبلى مطارفنا الاّ وهنَّ لطلاب الندى سلبُ

انه يريد من الفرد العربي أن يكون شجاعاً ماضياً مثل سيفه كي لاينكره الاجداد الذين عرفوا بالشهامة والاقدام والنبل والغيرة :(١٠٧٢)

اذا عربي لم يكن مثلَ سيفه مضاءً على الاعداء أنكره الجدُّ

وترى الشريف الرضي ـ وان كان نزّاعاً الى المجدِ ـ يصبو الى الجمال . ويتغزل بالمرأة الحسناء بقلب رقيق . قال الباخرزي : « له شعر اذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه . وعقد بالنجم نواصيه . واذا نسب انتسب الرقة الى نسيبه . وفاز بالقدح المعلى من نصيبه » (١٠٧٣) .

انَّ غزله الجميل المتمثل بقصائده المعروفة بالحجازيات(١٠٧٤) في غاية الرقة والعذوبة . « قالها في أماكن لايحلُّ فيها الرفثُ ولا الفسوقُ . وقالها وهو نقيب الأشراف وامام الحج . لكنه نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها وبفورانها فما استطاع لها كتماناً . فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح وسمو العاطفة ، فغفر له معاصروه هتافه للجمال واشادته بصبوات نفسه ولوعات هواه »(١٠٧٥) .

١٠٦٩) عبقرية الشريف الرضي ١ : ١٨١

١٠٧٠) ينظر الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ص ٧٩ ـ ٨٧ .

١٠٧١) ديوانه ١ : ١٩٠

١٠٧٢) ديوانه ١ : ٣٣٥

١٠٧٣) دمية القصر ١ : ٢١١ .

١٠٧٤) ينظر الشريف الرضي . دراسات في ذكراه الالفية ص ٦ ـ ٢٢ .

١٠٧٥) في موكب الخالدين ص ٩٦ .

انّ غزله يمتاز بسمو العاطفة . والوقار والعفّة . الى جانب « جمال الانسياب . وحلاوة الموسيقى – في أغلب الأحيان – وهو من أقرب فنونه الى البساطة البدوية التي تتجلّى في شعر العذريين وعشاق الاعراب . رجالاً ونساءً . وفيه نفحة من نفحاتهم في الحنين الى المرابع ومعاهد الصبوات » .(١٠٧٦) . وقد سار غزله بين عشاق الادب وحفظوه ورددوه في محافلهم ومنتدياتهم . ومن بديع قصائده الكافية التي عارضها كثير من الشعراء(١٠٧٧) وهي :(١٠٧٨)

ياظبيةَ البانِ ترعى في خمائلِه ... ليهنكِ اليومَ أن القلبَ مرعاكِ
الماء عندكِ مبذولٌ لشاربِه ... وليس يَرويكِ إلاّ مدمعي الباكِ
هبّتْ لنا من رياح الغورِ رائحةٌ ... بعد الرُّقادِ عرفناها بريّاكِ
ثم انثنينا . اذا ما هزّنا طَرَبٌ ... على الرحالِ . تعللنا بذكراكِ
سهم أصابَ وراميه بذي سلمٍ ... من بالعراقِ . لقد أبعدتِ مرماكِ
وعدٌ لعينيكِ عندي ماوفيت به ... ياقربَ ماكذّبتْ عيني عيناكِ
حكت لحاظُكِ ما في الريم من مَلَحٍ ... يومَ اللقاء فكان الفضلُ للحاكي
كأنّ طرفكِ يوم الجزعِ يُخبرنا ... بما طوى عنكِ من أسماءِ قتلاكِ
أنتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ له ... فما أمرُّكِ في قلبي وأحلاكِ
عندي رسائلُ شوقٍ لستُ أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتُها فاكِ
سقى منى ولياليَ الخيف ماشربتْ ... من الغمامِ وحيّاها وحيّاكِ
اذ يلتقي كلُّ ذي دَينٍ وماطلةٌ ... منّا . ويجتمعُ المشكو والشاكي
لما غدا السّربُ يعطو بين أرحلنا ... ماكان فيه غريم القلب الآكِ
هامتْ بكِ العينُ لم تتبع سواكِ هوىً ... من علّمَ البينَ أنّ القلب يهواكِ

وكان الشريف الرضي من الشعراء المجيدين في فن الرثاء . المحسنين في اظهار اللوعة والأس على الراحلين . قال الثعالبي : « ولستُ أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه » .(١٠٧٩) . وسمّاه الدكتور محمد عبدالغني حسن « شاعر الدموع »(١٠٨٠) . وعقد الدكتور احسان عباس فصلاً عن رثائه بعنوان « النائحة الثكلى »(١٠٨١) ومن ينظر في ديوانه يجدْ كمية المراثي كبيرة . وهي في رثاء أهل

(١٠٧٦) الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ٢٢٥
(١٠٧٧) ينظر الوافي بالوفيات ٢ : ٣٧٨ ، فهرس ابن خير ص ٤٢٤
(١٠٧٨) ديوانه ٢ : ١٠٧ .
(١٠٧٩) يتيمة الدهر ٣ : ١٤٩ .
(١٠٨٠) الشريف الرضي للدكتور محمد عبدالغني حسن ، ص ٧٠ .
(١٠٨١) الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ١٩٣ – ٢٢٢ .

بيته . ورثاء الاصدقاء والرؤساء والملوك . وتعدُّ مرثيته لأمه من المراثي الحارة التي تفيض بالشعور الصادق . وتعبر عن نفس مجروحة . وتبعث في القلب حزناً وتجعل القاريء يشاركه في مصابه الأليم . ونوردُ هنا الأبيات الاولى منها : (١٠٨٢)

أبكيكِ لو نقع الغليل بكائي ... وأقولُ لو ذهب المقالُ بدائي
وأعوذ بالصبر الجميلِ تعزّياً ... لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرني الدُموعُ وتارةً ... آوي الى أكرومتي وحيائي
كم عبرة موهتُها بأناملي ... وسترتُها متجملاً ببرائي
ما كنتُ أذخرُ في فِداكِ رَغيبةً ... لو كان يرجعُ ميتٌ بفداء
لو كان يُدفعُ ذا الحمامُ بقوة ... لتكدستُ غَضَبٌ وراء لوائي

وكثيراً مايعبر في مراثيه عن آلامه وهمومه . ويرسل في ثناياها حكماً وأمثالاً تدل على نظرات عميقة في الحياة . مثل قوله من قصيدة يعزي فيها الخليفة عن عمر ابن اسحاق بن المقتدر سنة ٣٧٧ للهجرة : (١٠٨٣)

ولا ترجُ أنْ تُعطى من العيشِ كثرةً ... فكلُّ مقامٍ في الزمانِ قليلُ
ومن نظرَ الدنيا بعينِ حقيقةٍ ... درى أنَّ ظِلاً لم يزل سيزولُ
اذا لم يكن عقلُ الفتى عون صبره ... فليس الى حسن العزاء سبيلُ
وانْ جهلَ الاقدار والدهرَ عاقلٌ ... فأضيعُ شيء في الرجالِ عقولُ
وموتُ الفتى خيرٌ له من حياته ... اذا جاور الأيام . وهو ذليلُ

وهكذا كان الشريف الرضي . متمكناً من ناصية القريض . في كل أغراضه . تراه يجيدُ عرض فكرته في بناء سليم . وأسلوب رشيق . وطرح شيق . ويحسن التوازن والتقابل بين الألفاظ والعبارات . كما يحسن اتيان التشبيهات والصور في مواضعها وتتجلى في شعره روح البداوة ممزوجة بروح الحضارة . ولا عجب حين يضع شعره في موازاة شعر الفرزدق وجرير في قوله : (١٠٨٤)

١٠٨٣) ديوانه ٢ : ١٩١
١٠٨٤) ديوانه ١ : ٤٣١

وقـــصـــيدةٍ عذراءَ عِـــثـــ ـــلٍ تألـق الروضِ الـنَّـضـير
فرحـــتُ بـــمالـــكٍ رقـــها فرخ الـخـمـيـلةِ بالـسفير
وكأنـــه فـــي رصـــفـــها جارَ الـــــــــفرزدق أو جرير

وتجدر الاشارة الى أنّ شعره يتميز بضبط عروضي محكم . وهندسة موسيقية تدل على رهافة حسّه . وبراعته في السيطرة على نظام البيت الشعري وفق القواعد والأصول (١٠٨٥) .

(١٠٨٥) تنظر الحمامة في شعر الشريف الرضي ص ٢٢٩ ـ ٢٣٤ .